

الطبعة الثانية

خمس قصص

د. عبد الله بن صالح العريني

أشياؤهم الصغيرة

العبيكان
Obeikan


مكتبة
طريق العلم









خمس قصص

أشياؤهم الصغيرة

الدكتور

عبدالله بن صالح العريني

عضو رابطة الأدب الإسلامي

العبيكان
Obeikan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العريني، عبدالله صالح

أشياؤهم الصغيرة./ عبدالله صالح العريني. ـ ط٢.- الرياض، ١٤٢٩هـ

٦٤ ص، ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٤ - ٤٤٣-٥٤ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١ ـ القصص القصيرة العربية - السعودية   أ. العنوان

ديوي ٨١٣,١٩٥٣١   ١٣٤٣/ ١٤٢٩

رقم الإيداع: ١٣٤٣/ ١٤٢٩

ردمك: ٤ - ٤٤٣-٥٤ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ ٢٩٣٧٥٨١/ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ ٤٦٥٤٤٢٤/ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥





لا أريد أن أراه

في البداية لم أتبيّن ملامح وجهه تماماً ...
ثم... ثم.. التقت عيناي بعينيه...!! كانت لحظةً
شعرت أنها دهر... فتحت فمي من الدهشة... يا
إلهي... أيمكن أن يحدث ذلك؟

لم أستطع أن أتكلم...

قال لي

رئيس التحرير:

- اليوم تأخذ معك المصور جبارة وتذهب معه إلى السجن.

فزعت وأنا أسمعه يذكر السجن وقلت:

- يا الله صباح الخير.. أرجوك يا أستاذ أحمد أنا مستعد أن أذهب إلى أي مكان إلاَّ السجن.

قال وهو لا يخفي ابتسامته:

- أنا جاد... هناك موضوعات كثيرة، (وخبطات) صحفية مثيرة تنتظرك.

رددت عليه بصيغة اعتذار:

- ولماذا أنا يا أستاذ أحمد.. أنا لم يسبق لي أن ذهبت إلى السجن.

- وأنا كذلك لم يسبق لي أن ذهبت إلى السجن. ولكنك ستمر إدارة السجن، ولديهم برنامج جولة، ولقاء بعدد من المسجونين.

قلت وأنا أحاول أن أدفع هذا الأمر عن نفسي:

- أظن الأمر لا يستحق كل هذا الاهتمام منك!

قال رئيس التحرير:

- ظننتك أجدت سر المهنة!

- لم أفهم ما تريد؟

- حين يسمح لك بمقابلة السجناء، يبدأ مشوار (الخبطة الصحفية) التي ستجعل ريبورتاجك مثيراً ومشوقاً، عليك أن تستفيد إلى أقصى حد ممكن من هذه الفرصة، ستجد في جعبة كثير منهم قصصاً مثيرة، أكثر إثارة من قصص الأفلام والدراما، ما عليك إلاَّ أن تحسن عرضها، وتقديمها، فتحقق كسباً صحفياً، ومعك المصور جبارة يتفنن في التقاط صور مميزة. أما مسألة الإخراج الصحفي فدعها لقسم الإخراج، وسأوصيهم بهذا الريبورتاج بصفة خاصة، لدي يقين أننا سنحقق نصراً صحفياً، وأننا سننبه إلى قضايا اجتماعية مهمة. ثم أضاف:

- أتعرف...؟ قضية الديون وحدها لو اكتفيت بها في حلقة خاصة لكانت حلقة موفقة، ثم في حلقات أخرى تتناول قضايا أخرى، ستجدها أمامك مباشرة وستراها تلحُّ عليك.

لم يكن لي حيلة في الاعتذار، ولذا نزلت من فوري أبحث عن زميلي المصور جبارة ثم ركبت أنا وإياه سيارتي، واتجهنا جهة السجن العام.

كان واضحاً أن رئيس التحرير قد نسَّق مع إدارة السجن لهذه الزيارة الصحفية، وكانت براعته أكثر في إعطاء زيارتنا خصوصيَّة معينة تجعل السَّبق لنا في الصحيفة، والتكتم الشديد لكي لا يرافقنا صحفي آخر من الصحف المنافسة.

قلت لجبارة حين رأيته يجهز آلة التصوير:

- ترفَّق... لست حراً لتصوير ما تريد..

قال:

- أرجو أن تخدمني آلة التصوير وبخاصة أنها من نوع جديد.

رددت عليه:

- ربما نعود إلى السجن عدة مرات لأخذ موضوعات صحفية... وأذكرك مرة ثانية... أنك لست حراً في التصوير، هناك أوامر وتعليمات لا بدَّ من الالتزام بها.

قال بشجاعة:

- أنا نقطة ضعفي أن أرى منظراً مثيراً... (ثم أضاف): ومع ذلك فآلة التصوير سوف أضعها بين يدي مدير السجن، فما يراه هو الذي سوف أعود به إلى الصحيفة. ما رأيك؟

قلت له:

- لا بأس... لكن الأفضل أن تسدَّ كل باب تأتي منه الريح لكي تستريح، أليس كذلك..؟

وصلنا البوابة ثم دخلنا فناء السجن، واتجهنا مع جندي مرافق إلى مكتب مدير السجن الذي هبَّ لاستقبالنا، وقال لنا:

- لا أريد أن تكون الجولة داخل السجن عنصر إثارة صحفية، بل أريده أن يكون أسلوب توعية لكي لا يسير الناس في الطريق الذي ينتهي بهم إليه.

شعرت بأنه كلامه يقوِّض بنيان أحلام رئيس التحرير في الحصول على ريبورتاج مثير، لكن مدير السجن واصل حديثه:

- نحن لا نريد استثمار المشكلات.. نحن نضع أيدينا في أيديكم بشرط الاتفاق على ما يلي:

الصدق...

الاعتدال وعدم المبالغة بالعناوين، أو الصور المثيرة.

والنفع العام وهو أن يهدف التحقيق الصحفي إلى فائدة واضحة للمجتمع.

ثم سكت برهة وقال موجهاً الحديث لي وحدي:

- أنت تعرف أن السجن مكان له طبيعته الخاصة.. فلا تحرج أحداً ليذكر لك اسمه، أو لتأخذ له صورة، دع الأمور مستورة... الستر طيِّب..

قلت له وبي شوق للمرور عبر زنازين السجن:

- أنا أعدك بذلك... كل ما ذكرت سوف نلتزم به.

سرت أنا وجبارة واثنين من الجنود المرافقين ومضينا ننتقل في ردهات مبنى السجن، فأدركت أنه عالم خاص مختلف جداً، كنت أحسُّ بنعمة الله عليَّ أن أكون حراً، أسير كما أريد، بينما الذين هم في الزنازين يحلمون بهذا الذي أفعله كل يوم ولا يستطيعون إليه سبيلاً، بل أتذكر أنني قادر أن أخرج من السجن متى أردت، أمَّا هؤلاء فيتحرقون شوقاً ليوم يغادرون فيه بوابة السجن.

كل شيء كان يثير غريزتي الصحفية المترعة بالفضول وحب الاستكشاف قلت لمرافقي:

- وهل سنظل نمشي في هذه الممرات الطويلة.. إنها كلها تشبه بعضها شبهاً كبيراً، بل لا تكاد تختلف فيما بينها.

قال لي:

- وماذا تريد؟

قلت له:

أريد أن نتحدث الآن مع السجناء.

نظر الجندي إلى زميله وكأنه ينقل السؤال إليه، فأومأ الآخر برأسه علامة الإيجاب، ثم قال:

- لقد سمعت كلام المدير... لا أظن هناك ما يمنع..

وما هي إلاَّ برهة إلاَّ ونحن الأربعة أنا وجبارة والجنديان في وسط مجموعة من السجناء عددهم ثمانية كل واحد قد جلس في ناحية من نواحي الزنزانة، وحين دخلنا أشرأبت الأعناق نحونا.. تركزت نظراتهم بي أنا وزميلي..

قال الجندي مخاطباً إياهم:

- هذا صحفي ومعه المصور إذا كان أحد يحب أن يتكلم معه فله ذلك، الأمر ليس واجباً... هذا متروك لكل واحد أن يقرره بنفسه.

ومضت فترة صمت قبل أن يشير إليَّ أحد السجناء أن أدنو منه. قال وكأنه تغلب على مخاوفه.

- تعال يا أستاذ.. أنا عندي لك من الوقائع والأحداث ما تشيِّب رأسك.

مضيت إليه، وجلست بجانبه، استأذنته أن أسجل الحديث؛ لأن هذا أسهل عليَّ، أقنعته بأن ذلك يعطي الحديث حرارة وحيوية.

تردد ثم قال:

- لا بأس... لكن بشرط..؟؟ لا أريد أن تذكر اسمي ولا رسمي في الصحيفة.

قلت له:

- لك ذلك...

وفتحت آلة التسجيل وبدأ يتحدث... ويتحدث.. كان حديثاً مثيراً في بدايته، ثم شعرت أنه يكرر ما يقول، ويعيده بشكل يفقده الإثارة، وحانت مني التفاتة إلى رجل في الركن البعيد من الزنزانة. لا أدري.. لماذا أشعر بحبل خفي يشدني إلى النظر إليه؟؟ فأغفل عن السجين الذي يتكلم... بينما لا أملّ من الالتفات بين آونة وأخرى إلى ذلك الرجل القابع بعيداً.

في البداية لم أتبيَّن ملامح وجهه تماماً... ثم ... ثم .. التقت عيناي بعينيه..!!

كانت لحظةً شعرت أنها دهر... فتحت فمي من الدهشة... يا إلهي... أيمكن أن يحدث ذلك؟

لم أستطع أن أتكلم... فيما شعر السجين الذي كنت أسجل حديثه بارتباكي فقال:

- ماذا حدث لك؟

لقد أحسست أن كل من في الزنزانة، قد رأى ما أصابني من ارتباك واضطراب.

لكني تمالكت نفسي فعدت إلى محدثي... ترتعش العبارات على لساني.. ولا أكاد أصوغ سؤالاً واحداً بطريقة مفهومة، إلى الحد الذي أثار سخط السجين وملله.

بينما أدار السجين الآخر ظهره وجعل وجهه ناحية الجدار..

نعم إنه هو !!! جارنا أبو منصور... ذلك الذي كان صديقاً من الأصدقاء... لكنها صداقة لم تستمر، إذ بدأت أنكر عليه تركه لأسرته فترات طويلة وسفره.. وعدم متابعة ولده وابنته في المدرسة حتى أصبح الرسوب شيئاً طبيعياً لهما بعد أن كانا متفوقين. وكلما حدثته زجرني بغلظة، كان يغير موديلات سياراته بشكل مثير فكانت لي معه أحاديث في ضرورة الاعتدال. ومع ذلك لم يقبل أي كلام مني، بيتي وبيته متلاصقان، ولذا كانت زوجته تشعر بكثير من الارتياح حين تأتي لزوجتي فتشكو حالها وحال زوجها ثم تأتي لها أحياناً بفاتورة الكهرباء أو الهاتف، وتطلب أن أسددها خشية أن تقطع الكهرباء أو حرارة الهاتف...!! فأسارع للتسديد رحمة بها، وتخبر زوجتي بأن منزلهم خالٍ من كل مؤونة، فتقدم لها بعض المساعدة حتى عودة أبي منصور.

ويبدو أنها كانت تلومه؛ لأنه يضطرها إلى الضعف والذلة والطلب من الجيران، لكن نفسيته المعقدة لم ترض بأن يوجه له أي عتاب، مهما كان لطيفاً... أما أنا فطالما نصحته ودعوته أن يكون أباً حنوناً، وأن يعتني بمصالح أسرته، وذكرته بأنه راعٍ ومسؤول عن رعيته أمام الله تعالى. لكنه تهدّد وتوعّد... وعدّني أتدخل في شؤونه العائلية.

سبحان الله!! شؤونه العائلية؟؟ هكذا مرة واحدة !! وهل كان ذنبي إلا أن ساعدته وخدمته؟؟ قلت لنفسي يوماً:

- والله ما يستحق مني بعد الذي عمل شيئاً، ولا كلمة طيبة.. ولكن ما ذنب عائلته؟؟ وشعرت زوجته المسكينة أن هذا الوضع الصعب سيستمر، وأنه لن يتخلى عن شراسته، فاتصلت بأحد أعمامها ليأخذها إلى أهلها. وقبل ذهابها جاءت تودع زوجتي، كان وداعاً باكياً لم تستطع كلا المرأتين الحديث من كثرة العبرات والدموع. وذهبت زوجته بأبنائها إلى مدينة أخرى، حيث يوجد أهلها وعشيرتها وتركت له الدار تنعق بها البوم!!.

كان واضحاً أنَّه لم يعد شخصاً طبيعياً، بل أصبح شرساً عدوانياً، فبدأت أتحاشى أن أقابله، وكان الأمر كذلك بالنسبة للجيران الآخرين..

ولم تكن صحته وهيئته لتعجب أحداً، ثم غاب عن الحي فجأة، وطالت غيبته، وظل كل واحد يروي شيئاً عن أسباب غيبته، كنت أخشى من شيء واحد، ولم أكن أستطيع أن أجهر به، بل كنت أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأقول لا.. لا يمكن أن يحصل هذا إن شاء الله.

ولكني حين رأيته في السجن.. تأكد لي ما كنت أظنه.. لقد كان يتعاطى المخدرات.. وأفقت من شرودي، والسجين الذي بدأت الحديث معه يقول بعفوية:

- أنت سارح.. أنت لست معي.. المسجل خلص الشريط، ويحتاج أن تقلبه على الوجه الآخر..

قلت: لا داعي.. الذي قلت فيه بركة... فيه بركة..

وسألت الجندي عن زميلي جبارة والجندي الآخر فقال:

- لقد ذهب زميلك مع الجندي الآخر، لديه أمكنة يسمح له فيها بالتقاط الصور.

وهممت بالنهوض لكن السجين أمسك بيدي، وقال وهو يشير إلى جاري القديم:

- إذا أردت العجائب فاسمعها من (أبو منصور). (وأضاف) ترى عنده (أعلوم) تصلح للصحافة، اذهب إليه وستعرف ذلك منه.

كادت تسيخ قدماي بي منذ رأيته، فكيف أذهب إليه، لا.. لا... تكفيه هذه الفضيحة، ويكفيه هذا الموقف المترع بالذلة والصغار، لا أريد أن يشعر أنني أشمت به... لا أريد ذلك أبداً، كنت أعرف أنه - وإن أدار ظهره نحونا - فإنه يصغي لأحاديثنا كل الإصغاء. وقمت من فوري، وأنا أدعو بالفرج لهذا السجين ولجميع السجناء.

- الله يعجل فرجكم.. الله يعجل فرجكم.

والسجين يردد:

- آمين ... آمين .. الله يستجيب منك.

أما أبو منصور جاري وصديقي القديم فقد خرجت ووجهه للجدار، لا يكاد يلتفت نحوي، ولعله لن يلتفت حتى يتأكد من خروجي تماماً من السجن كله، وليس من هذه الزنزانة وحدها.

ولم أجد لديَّ أي رغبة في متابعة الجولة، وحين رأيت زميلي المصور جبارة وجدته سعيداً بكمية الصور التي سمح له أن يلتقطها، كان يتوقع أننا ما زلنا في بداية الجولة الصحفية، غير أني فاجأته بقولي:

- لقد انتهى التحقيق الصحفي.

رد بدهشة:

- ولكن بقيت أشياء كثيرة.

قلت له بكل حزم، وأنا أداري مشاعري خشية أن يرى ما حدث لي من تأثر:

- الذي رأينا فيه كفاية... فيه كفاية يا جبارة..!!





يا مغير الأحوال

بدأت الأشياء التي تذكره بالفقر بالانقراض تدريجياً، واستمر زحف مظاهر الغنى على حساب دخله المحدود، وكان ذلك يمثل مشكلة له، فكان يحلُّ مشكلته بالاقتراض من جديد.

ووضعت الزوجة يدها على قلبها وهي تراقب الأمر.

نظر إلى إناء الطعام الذي جاءت به إليه. كان صحناً قديماً تأثرت جوانبه بكدمات السقوط المتكررة، ومع أنه نظيف، إلا أنه لم يكن جديداً يفتح نفس الآكل فيه.

قال لزوجته:

- أتعرفين..؟؟

- ماذا؟

- لوددت أن ينكسر هذا الصحن، أو يضيع أو يسرق!! المهم أن يختفي عن عيني.. لقد مللته، ومللت رؤيته، ومللت الأكل فيه، الطعام لم يعد له فيه طعم ومذاق.

نظرت إليه بتعجب وقالت:

- ولكنه يسدّ الحال.

- هذا يذكرني بالفقر... يشعرني أني لا زلت فقيراً محتاجاً.

قالت ضاحكة:

- لا داعي للنظر إليه، كُل وأنت مغمض العينين؟

- أنا لا أمزح.

- وماذا تريدني أن أعمل.. هل جئتني بصحن جديد ورفضت أن أضع الطعام فيه؟؟

- أعرف أن لدينا غيره.

- واحد فقط.. للمناسبات (وأضافت) يحمينا الله به من ألسنة المنتقدين، ونظرات الفضوليين.

- أحضريه من فضلك؟

- سوف أحضره.. لكن إذا جاءك ضيف سوف ترى أن الحكمة كانت في الحفاظ عليه.

بان عليه الضيق والملل، وقال بتأفف:

- كل هذا من أجل صحن، وقليل من الملاعق والشوكات... ماذا سوف يكون رأيك لو.. (وتوقف قليلاً).

قالت بتعجب واندهاش:

- لو.. لو ماذا؟

- لو أخبرتك عن عزمي بتبديل السيارة !!

- تبديل السيارة؟؟ هكذا مرة واحدة. ماذا جرى لك.. هل وجدت كنزاً؟

- لا بالطبع ... ولكن..

- ولكن ماذا ؟

- هذه السيارة غدت قديمة... قديمة أستحي والله من ركوبها، أريد سيارة لا ترتبط بالفقر، ولا تدل عليه، ولا تذكر به.

- رجعنا لموضوع الفقر.

- نعم...

- ولكنها تفي بحاجاتك.. توصلك إلى عملك وإلى السوق ومشاويرك الخاصة.. جزاها الله ألف خير.

- لكني مللت منها.. لأنها تجعلني أبدو فقيراً... وأنا لا أحب ذلك ولا أريده.

- الفقر عندك عقدة .. عقدة نقص..

- قولي ما شئت. لكن المظهر مهم.. مهم جداً..

- المظهر مثل (الشيك)، لا قيمة له إن لم يكن له رصيد...

- كلامك فلسفي .. وأنا لا أحب الفلسفة.

- لا... وأزيدك من الشعر بيت..

- ماذا؟

- إذا سارعت إلى التظاهر بالغنى وأنت هذه حالك فمعنى ذلك أنك ستكون فقيراً طول عمرك؟

- قولي! إلا أن يشاء الله.

- أستغفر الله... ستكون فقيراً طول عمرك إلاَّ أن يشاء الله. (وأردفت بلهجة ناصحة) لأن كل إيراد عندنا سيكون سداداً لشيء كمالي. والكماليات مثل الماء المالح لا تروي من العطش.

بدا كلامها منطقياً، وهو لا يحب المنطق، معقولاً، وهو يتكلم بعاطفته، ولذا لم يستمع لما تقول، وأصرَّ على أن فكرته هي الأصح، وانتهى إلى قرار بأن يتظاهر بالغنى ليكون غنياً، أو على الأقل ليعيش كالأغنياء.

ودخل في نفق طويل من أنواع التقسيط الذي كان مريحاً في البداية، لكنه بالغ وأسرف في هذه التقسيطات، فهو لا يفكر بالمبلغ الإجمالي، ولا فترات السداد الطويلة، كل ما يفكر به القسط الذي يؤخذ من الراتب، وهو يعدُّ قليلاً في البداية، ولكن هذا القليل كان يشتعل مثل حرائق الغابات ويضيع راتبه.. في غمرة فرحته بالحصول على ما يريد.

وراح يتضايق من كل شيء يذكره بالفقر، فأصبح عندما يشتري شياءه الخاصة أو أغراض البيت المختلفة فإن أهم شيء لديه؛ هو الماركة التجارية التي تشهد له بالذوق الرفيع والمستوى المتميز.

حتى هداياه للأقارب والأصدقاء شملها هذا التغيير، فلم يعد يقدم ما يؤدي الواجب، في أضيق نطاق ممكن، بل شعر أن هذا المجال يكشف للناس فيه عن ذوقه وحسن اختياره.

بدأت الأشياء التي تذكره بالفقر بالانقراض تدريجياً، واستمر زحف مظاهر الغنى على حساب دخله المحدود، وكان ذلك يمثل مشكلة له، فكان يحلُّ مشكلته بالاقتراض من جديد.

ووضعت الزوجة يدها على قلبها وهي تراقب الأمر، والرجل لا يسمع حقاً ولا باطلاً.. وحين أكثرت عليه وألحَّت بأن يمدَّ قدمه على قدر لحافه، قال لها ساخراً:

- عجيبة!!

- عجيبة.. كيف؟

- كنت أتوقع منك وأنت امرأة تحبين المظاهر أن تفرحي بكل جديد آتي به إلى البيت.

- بل أنا أحزن...؛ لأن هذه المظهرية ستقتلنا بغير سلاح، أصبح راتبك لا طعم له.. لأنه يذهب في الأقساط المختلفة.. حتى صاحب البقالة يتشكك من قدرتك على دفع المشتريات منه لأنك منذ شهرين لم تسدد له شيئاً، أصبح يتلكأ في إحضار ما نطلب منه.

قاطعها قائلاً:

- هذه ليست مشكلة، هذا اليوم سأتدبر الأمر وأحضر له ما يريد.

- هذا جرس إنذار.. عليك ألا تضع أصابعك في آذانك لتمنع نفسك من أن تسمعه، لأن هذا ليس هو الحل.

- قلتُ لك سأتدبر الأمر..

- اليوم تتدبر الأمر.. وغداً لا تستطيع...؛ لأن صاحب البقالة غير مكلف أن يكدَّ علينا.

كان كلامها منطقياً جداً، ومع أنه لا يحب المنطقية لكن ضربات الواقع بدأت تتجه نحو رأسه فيشعر بألمها، ولا يستطيع أن يتناساها.

وما هي إلاَّ أيام؛ وإذا بأول أزمة تواجهه، فحين دخل محل البقالة لأخذ بعض الحاجات، قال له صاحبها بكل أدب ولطف:

- يا أبو مشعل.. حسابك لم يسدد لشهرين.. (ثم أضاف بما يشبه الاعتذار).

- أنا عارف أن الذي عندك قريب. لكن أردت أن أذكرك.. ومثلك يعرف.. وأعلم أن ما لنا في هذه البقالة إلاَّ التعب..

قال أبو مشعل:

- ما يصير إلاَّ خير.. لو كنت طلبت المبلغ قبل أسبوع كان أعطيتك.. لأنه كان عندي.. أما الآن.. فأنا ما عندي سيولة.

- أنت مغنيك الله.. ما يتعبك مثل هذا المبلغ المتواضع؟!

كان لا بدَّ أن يتهرب بلطف، فإذا به يقول ضاحكاً:

- هل تصدق؟؟ أننا نحن الذين يقال عنا تجار يأتي وقت ما عندنا قيمة بنزين السيارة.. مشكلتنا أننا لا نجعل الريال يرتاح أبداً.. الراحة بالنسبة له موت..

سكت صاحب البقالة على مضض، فهو يعرف أن صاحبه ليس صادقاً كل الصدق، ولكنه مع ذلك لم يرد أن يخسر زبوناً متميزاً. وعميلاً من عملاء المحل.

ولملم أبو مشعل حاجاته من المحل، ثم وضعها أمام صاحب البقالة الذي حسب ثمنها، وسجل القيمة في دفتر المبيعات، ثم خرج بها وفي الطريق كانت الخواطر تنثال على ذهنه."آه لو علم أنه ليس عندي شيء.. حتى ولا ثمن هذه الحاجات ماذا كان سيفعل؟؟ هل سيظل يعطيني على الحساب"؟

وحين وصل إلى المنزل كان هناك أكثر من اتصال من محصلي الديون، كل واحد يسأله سؤالاً محرجاً، ويدعوه أن يبدأ في سداد مستحقاته قبل الآخرين. وهو يرد بلطف ويعد خيراً، لكي لا تطفو على السطح مشكلة الضائقة التي يعيشها.

وسكتت الأصوات على مضض، وعلى وعدٍ جازم منه أنه سيبقي في رصيده المبالغ الكافية لتلك الأقساط. لكن المشكلة لم تنته بسكوت هؤلاء، فقد مرَّ عليه صباح اليوم التالي في مكتبه أحد المحصلين، وقبل أن يفتح فمه بكلمة، رجاه أبو مشعل أن يسكت مقابل أن يعطيه كل ما يريد، وقال بكثير من الترجي والانفعال:

– أسترنا يا رجل... الله يستر عليك.. ماذا تريد؟ حقك سوف تأخذه.. ولكن بدون إزعاج وضوضاء.. بدون فضائح إذا سمحت.

وأخذه إلى مكتب بعيد وأغلق عليهما الباب.. وقال له:

– أنا الآن مثل ما ترى!

- يعني ماذا؟!

- هذا الشهر ما عندي شيء..

- لكنك ملتزم بالسداد، وأنت لا تريد أن تسدد؟!

- أنا لا أستطيع الآن.. أنا والله فقير!

- فقير..

- إي والله العظيم..

- وهذه السيارة (الكشخة)، وهذا الهندام الراقي و... و..

- هذي والله مظاهر.. مجرد مظاهر.. والله لا تدل على شيء.

نظر إليه باستغراب وقال في تحدٍّ:

- أنا مهنتي كما تعلم محصِّل ديون.. يعني أعرف صاحبي تماماً، وأعرف كل الحيل والألاعيب التي عادة ما يعملها أمثالك.

قبَّل أبو مشعل رأسه وقال:

- هذه المرة من أجلي.. من أجلي.. الله يرضى عليك.. استرها معي.. الله يستر عليك.

شعر المحصِّل بغير قليل من الحرج، وبخاصة أن هذا أول تأجيل يطلبه منه، فخرج بعد أن أخذ وعداً قاطعاً أنه لن يطلب منه التأجيل مرة ثانية.

وما إن خرج حتى عاد أبو مشعل إلى مكتبه مواصلاً عمله الاعتيادي، وعندما رأى انصراف كل واحد منهم إلى عمله، حمد الله أن أحداً لم يفطن إليه، وحين عاد إلى منزله سقط على الأريكة الكبيرة في الصالة، رمى بغترته وعقاله على أقرب منضدة، ونادى بصوت مرتفع لم تتعود عليه زوجته:

- الماء من فضلك... كأس ماء بارد..

وجاءت به إليه.. جاءت تحمل كأساً من الكرستال الفاخر تُحليه زخارف ذهبية فائقة الرقة والجمال. وقبل أن يشربه.. نظر إليه، قال لها باندهاش:

- زينب؟!

- نعم يا (أبو مشعل)..

- ارفعي هذا الكأس..

- للضيوف.

- بل لا أريد أحداً أن يرى أي مظهر للغنى عندي.. كل الكماليات والزخرفيات الفاخرة اجمعيها للمستودع.. إنني لا أريدها.. لا أريدها الآن، أنا أبدو كاذباً إذا قلت ليس عندي شيء، ليس لدي ما أملك.. أنا عليَّ ديون.. عليَّ ديون.. ولا أحد يصدق أنني مفلس، وعندي كل هذه المظاهر الفارهة.. لا أحد

يصدق أنني لا أملك شيئاً.. حتى سيارتي سأبيعها، وأسدد بثمنها بعض الأقساط، وأشتري سيارة معقولة...

وراحت تنظر إليه متعجبة من تحوله المفاجئ، إذن لقد اقتربت السكين من العنق!! بالأمس القريب رفض كل شيء يدل على الفقر؛ لأنه يخجل أن يبدو فقيراً فيُحتقر، واليوم يرفض كل مظاهر للغنى خوفاً من مطالبة الدائنين.

وجمعت زوجته كل شيء ثمين، فوضعته في الخزانة، وعادت له بأدوات طعام عادية، كادت أن ترسلها لجمعية البر، ومن بينها ذلك الصحن الذي أثار غضبه يوماً من الأيام، واليوم لا يرتاح إلا بالأكل فيه، لاحظها وهي تسبح في تخيلات بعيدة شعر بأنها عرفت ما في نفسه من أفكار.. قال لها:

– أنت تتحدثين مع نفسك.. تُرى ماذا كنت تقولين؟؟

ابتسمت له بحنان، وقالت بلطف بالغ:

– كنت أقول بيني وبين نفسي، سبحان مغيِّر الأحوال!!... (وحين رأت تأثره وسحابة الحزن التي غطت وجهه أضافت):

– ستفرج بإذن الله يا (أبو مشعل).. ستفرج إن شاء الله..

ولم يستطع أن يتمالك نفسه فاغرورقت عيناه بالدمع وهو يردد: آمين.. آمين.. آمين..





أشياؤهم الصغيرة

وحين أكد له السكرتير بأنني لن آخذ من وقته إلا القليل، زاد في الاعتذار، وهو يقول:

- ما في مشكلة! موضوعه بسيط! هذا شيء صغير جداً، أنا مشغول الآن بما هو أهم، فليأت غداً (وما يصير إلا خير).

اعترضت

ابنتي الصغيرة منال طريقي، وأنا في سبيلي للخروج من المنزل، قالت:

- أبي!! لا تنس أن تشتري لي طوق شعر.. لقد ضاعت أطواق شعري، لم يبق منها شيء!

ومع أني لم أُبدِ غضبي، إلا أنني كنت غير راضٍ عن هذا الطلب؛ لأن مثل هذه الأمور والطلبات التافهة لا ينبغي أن أشغل بها نفسي، فلتذهب إلى المدرسة من غير طوق للشعر ليست مشكلة!!، أما أن أشغل بهذه الأمور فشيء غير مناسب أبداً!!

وهززت رأسي بالموافقة، وأنا أسخر من ذلك الطلب الصغير، وكيف أنه شيء تافه لا يستحق كل ذلك الاهتمام!!

كان ولدي سلطان في الصف الرابع الابتدائي، وكان له طلبه أيضاً، فهو يريد صافرة.. مدرس الرياضة يريد منه صافرة للكرة، تشاغلت عن سماع طلبه، ولم أعلق بشيء، وخرجت بالصمت من (لا) و(نعم) فيما كنت أقول لنفسي:

- وما لي أنا ومدرس الرياضة..؟؟ والصافرة؟؟.. هل أنا الوزارة حتى أؤمن طلبات الرياضة؟ ثم كيف أشغل نفسي بإحضار صافرة؟ يا له من طلب سخيف!!

أما زوجتي فكانت تلح أيما إلحاح أن أحضر لها هدية مولود لتقديمها لإحدى قريباتها، وحينما رأتني خارجاً؛ ألقت ما في يدها من أواني المطبخ ولحقت بي وهي تقول:

– يا أبو سلطان هذه المرة الثانية التي أطلب منك هذا الطلب.. بنت أختي (جاب الله لها مولود)، وأريد شراء هدية مواليد: مشّاية.. قعّادة.. مرجيحة.. سريرة صغير.. مفرش وبطانية.. أي واحد من هذه الأشياء.. أرجوك اعمل معروف، وأحضره لي، حتى آخذه معي، وأزورها قبل أن تطلع من الأربعين.

وهززت رأسي بالموافقة، وأنا أتميز من الغيظ... سبحان الله..!!! أنا المسؤول عن حسابات المؤسسة ومشاريعها، التي تقدر بمئات الألوف... أضيِّع وقتي في شراء مرجيحة وصافرة وطوق شعر.. إنكم لم تعرفوا قدري بعد!!. كيف تشغلونني بهذه الطلبات؟ وهي من تفاهتها لا تستحق أن تُطلب مني.. كنت أهزُّ رأسي دليل الموافقة، ورغبة في التخلص فقط، مع أني لن أسعى في تحقيقها؛ لأنني مشغول بالأمر الكبير لدي وهو موضوع الترقية.

وخرجت إلى عملي، وطوال الطريق كان يشغلني التفكير في موضوع ترقيتي إلى المرتبة الرابعة.. إنها قضية صعبة بالنسبة لي.. نعم شهادتي يختلف مجالها عن طبيعة الوظيفة الشاغرة، لكن التوصيف الوظيفي للدرجة التالية تجعل خبرتي التي اكتسبتها في المؤسسة طيلة الأعوام الماضية تكفي للحصول على الترقية، وهذا ما شجعني على تقديم طلبي ومتابعته.

ألم أقل يا أولادي إني مشغول بشيء مهم عن أشيائكم الصغيرة؟!

وحين وصلت مكتبي مضيت أجمع وأطرح، وأستنفر كل ما لدي من حجج، وأضعها في شكل عناصر مرتبة، لكي تكون معي حين أتناقش مع المدير العام.. ليعلم أنني لا أجهل الشروط المطلوبة.. بل حفظت تلك الشروط عن ظهر قلب، وكلها تكاد تكون مفصلة على وضعي الوظيفي.

إن قضية ترقيتي ليست أمراً سهلاً، لقد انتظرتها منذ ثلاث سنوات، بل من أربع سنوات، وأنا أحق بها من كل زملائي، ولكن اقتناعي لا يكفي؛ بل لا بد من اقتناع المدير العام وهو صاحب القرار الذي يمكنه أن يفهم حقيقة ما أريد، بعيداً عن أي احتمال آخر، فأنا لا أُغالط، ولا أتعسف، ولا أُطالب بشيء ليس لي.. إنه أمر مهم، بل مهم جداً.

وجمعت أوراقي في مغلف بلاستيكي جميل، ثم رفعت سماعة الهاتف وطلبت سكرتير المدير العام، إنني أعرف هذا الرجل، وهو من أكثر رجال المؤسسة تعاوناً وحباً لمساعدة الآخرين. أخبرت السكرتير أنني أريد مقابلة المدير العام إن كان هذا ممكناً، استأذن وتركني على الخط برهة ثم قال:

- لا بأس. يمكنك أن تأتي للمدير العام بعد ساعة ونصف من الآن، سوف يكون مستعداً لمقابلتك.

وقبل أن أُنهي المكالمة قال لي:

- ولكن أرجوك ألا تطيل الوقت معه (ثم أردف):

- ما رأيك؟؟ ربع ساعة تكفيك؟

قلت له:

- تكفي وزيادة.

قال لي بكل تودد:

- لست بحاجة لتذكيرك إذن بانتهاء الموعد، إن في القائمة أُناساً آخرين غيرك!!

- من هذه الناحية لا تقلق.

وانتهت المكالمة، وبعد ساعة ونصف بالضبط كنت في صالة الاستقبال الخاصة بمكتب المدير العام. سلمت على السكرتير ثم جلست بانتظار أن يؤذن لي بالدخول على المدير.

إلاَّ أن وعد السكرتير لي لم يتحقق، فقد عرفت أنه أعطاني الموعد مع المدير، لأنه غلب على ظنه أن الضيف الذي لديه سيخرج بعد قليل.. ولمَّا لم يحدث ذلك، راح يسأل المدير مستفسراً عن موضوعي، وعمَّا إذا كان عليَّ الانتظار بعض الوقت، أو يؤجل اللقاء إلى موعد آخر:

كان السكرتير قد دخل مكتب المدير تاركاً الباب مفتوحاً قليلاً. فسمعت المدير يطلب منه أن يعتذر عن مقابلتي، وحين أكَّد له

السكرتير بأنني لن آخذ من وقته إلا القليل، زاد في الاعتذار، وهو يقول:

- ما في مشكلة! موضوعه بسيط! هذا شيء صغير جداً، أنا مشغول الآن بما هو أهم، فليأت غداً (وما يصير إلا خير).

وأثَّر في نفسي ما قاله عن موضوعي:

موضوعي أنا موضوع صغير؟!

كيف؟

وأنا الذي أحلم به في المنام واليقظة!!

وجاء السكرتير على حياء يخبرني أن اجتماع مجلس الإدارة سيُعقد اليوم، ولا سبيل إلى التأخر عنه أبداً، ثم طمأنني على أن موضوعي واضح ولن يأخذ شيئاً عندما آتي غداً.

وفي الغد جئت على الموعد، ودخلت على المدير العام، الذي بمجرد أن رأى الملف، صاح في سكرتيره على عجل:

- أما قلت لك مثل هذه الأمور الصغيرة يكفي فيها مدير شؤون الموظفين، أنا أعطيته صلاحية كاملة.. أُريد أن أتفرغ لما هو أهم لو سمحت؟!

ونظر إليَّ وهو يناوله الملف قائلاً بلطف بالغ:

- اذهب مع السكرتير لمدير شؤون الموظفين.. هذا موضوع صغير، وسهل، وبإذن الله سوف ينهيه لك هذا اليوم.

ثم رأى أن يطيِّب نفسي أكثر، فأنهى كلامه بقوله:

- اذهب معه الآن (وما يصير خاطرك إلاَّ طيِّب).

شكرته كثيراً على مروءته، ولطفه، غير أنني لا أُخفي أنني ما زلت مستاءً لوصفه موضوعي بأنه صغير، إلى الحد الذي يترفع عن النظر فيه...

وذهبت مع السكرتير إلى مكتب مدير شؤون الموظفين.. وحين ناوله ملف الترقية قال له:

- إنَّ المدير العام يقول: لا ترفع لنا شيئاً مثل هذا الطلب.. أنتم لديكم صلاحية البت فيه دون الرجوع إليه.

قرأ مدير شؤون الموظفين الطلب، ثم نادى موظفاً لديه، فإذا به يعاتبه أمامي أشد العتاب.

- كيف يرفع هذا الطلب للمدير العام؟!

- يبدو أنه خطأ.

- إذن لا أريده أن يتكرر!

وانتظرت منه أن يؤشر باعتماد الترقية ما دامت في دائرة صلاحيته، ولكنه بدلاً من ذلك، توقف عند مسوغات الترقية، وقال باندهاش:

- غريبة؟؟

قلت له بلطف بالغ:

- لعلك تقصد عدم مطابقة شهادتي للوظيفة التي أتقدم لها؟

- نعم!

- هذه الناحية عندي توضيح - إذا تكرمت - وهو أن..

ولم يدعني أكمل حديثي، بل قال مقاطعاً:

- مثل هذا الاختلاف لا أستطيع أن أحسمه. هنالك لجنة فرعية في الهيئة الفنية للتصنيف الإداري لا بد من أخذ رأيها، وهي صاحبة القرار باعتماد الخبرة، وجعلها مساوية للشهادة المطلوبة.

قلت بانفعال:

- هل آخذ الملف إلى اللجنة الفرعية؟

- لا ... سوف نرسله إليها بالطريق الرسمي.

سألت بلهفة:

- هل أنتظر الرد قريباً... أسبوع مثلاً .

قطَّب جبينه وهو يقول:

- لا أستطيع أن أجزم بوقت محدد.. لكني لا أخفي عليك أن اللجنة لديها أمور مهمة مشغولة بها في هذه الأيام، وموضوعك

بالنسبة لها سيكون موضوعاً صغيراً. وربما ستبقيه حتى يجتمع معه ما يماثله، ثم يصدر بها جميعاً قرار واحد.

وهالني تبسيطهم الشديد لموضوعي!! فتعطلت لغة الكلام، ولم يعد لديَّ ما أقول، فاستأذنت، وخرجت من عند مدير شؤون الموظفين، لكني لم أذهب إلى مكتبي في المؤسسة، بل اتصلت بمديري المباشر، أطلب منه أن يسمح لي بالغياب بقية هذا اليوم، ثم ذهبت مباشرة إلى السوق.. فاشتريت صافرة لابني سلطان وطوق شعر لابنتي منال، ومشَّاية جميلة لتهديها زوجتي للمولود الذي جاءت به ابنة أختها.

تلك الأشياء الصغيرة عندي الكبيرة عند أسرتي تماماً كشأن ترقيتي الصغيرة جداً عند المدير العام، ومدير شؤون الموظفين، ولدى اللجنة الفرعية في الهيئة الفنية للتصنيف الإداري.





إزعــاج

أصبح كلامه اليومي في طلب الهدوء، لا يقدم ولا يؤخر، نوعاً من التنفيس لا غير، فصغر حجم المنزل، وقسوة الشغل ومتطلباته، وضيق ذات اليد، أمور لا يمكنه الصبر طويلاً على معاناتها، ولكن ما الحيلة؟؟

للمرة العاشرة

قلت لك: كُفِّي صراخ الأطفال عني، حلِّي مشاكلك معهم، لا داعي لهذه الضوضاء.

هل تريدين أن أخرج، وأترك لكم المنزل كله، وأعود من حيث أتيت؟؟ أريد أن أرتاح، من فضلك، لو سمحت، أرجوك أعصابي لم تعد تحتمل...!!

عبارات اعتادت ربة البيت على سماعها منه، في كل يوم.. ولكنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً، إنهم هم الأطفال في صخبهم وبراءتهم وضجيجهم... ليس طبيعياً أن نطلب منهم أن يكونوا رجالاً، وهم لم يزالوا صغاراً مساكين، إنَّهم يبكون ويصرخون ويتشاجرون فتدوي أصواتهم في هذا البيت الضيق ثم إن أعصابها هي الأخرى قد احترقت، ولكنها لم تنس أبداً أن وجودهم معها في البيت أفضل من خروجهم إلى الشارع، لا بد من التضحية، وهم يستحقون فعلاً التضحية.. لا حيلة معهم إلا الصبر، وتلطيف جو المنازعات بقدر الإمكان.

قال لها:

- أنت تعوَّدت على إزعاجهم.. أخذت مناعة، أصبحتِ لا تتأثرين.. أما أنا فلا أستطيع.. أبداً.. أنا آتي إلى البيت لكي أستريح..

أتفهمين معنى أستريح..؟؟ هذا يعني يا أم بندر أنني مثقل بالهموم ومشكلات العمل، وأريد أن أهرب منها بعض الوقت، فماذا

أجد؟؟ أولاد مثل... (أعوذ بالله)؟ إذا سكتوا عن الشغب والصراخ، لم يسكتوا عن الطلبات، التي تصدِّع الرأس، كل واحد له طلب، يريد أن أحقق له شيئاً، أو آخذ له الحق من أخيه. إن خصوماتهم لا تتوقف إلا في فترة هدنة مؤقتة لا تزيد عن ساعة أو بعض ساعة، ثم تعود الساحة في المنزل مليئة بالأحذية المتبادلة، والملابس المتناثرة على غير نظام، والكتب المدرسية المبعثرة بعد انتهاء الدوام الدراسي، وقطع الألعاب التي ينقضُّون عليها تفكيكاً وتخريباً حتى تصبح في خبر كان.

أصبح كلامه اليومي في طلب الهدوء، لا يقدم ولا يؤخر، غدا نوعاً من التنفيس لا غير، فصغر حجم المنزل، وقسوة الشغل ومتطلباته، وضيق ذات اليد، أمور لا يمكنه الصبر طويلاً على معاناتها، ولكن ما الحيلة؟؟

أما كان الأولى أن يكتفي بولدين.. أو ثلاثة؟؟.. لماذا يحمل نفسه ما لا تحتمل؟ لكنه سرعان ما يطرد وساوس الشيطان، ويقنع نفسه أن الأولاد زينة الحياة الدنيا، وأنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء. وأن كل مولود يأتي برزقه معه، فلم يخلق الله مخلوقاً يضيعه، وسيفرح بهم، ويرى منهم ما يسره في المستقبل، وينسى ما كابده في الحياة من أجلهم.

ويترنم ببيت شعر شعبي يقول:

العود يوم إنــه يجيب العيـالِ

يبي بتالي العمر لذة وطربات

هـكذا كانت نفسيته بين مدٍّ وجزر، بين صبر وتصبر في مرة، وجزع وتضايق مرة أخرى.

وفي يوم من الأيام تلفت أعصابه إلا قليلاً، في هذا اليوم عاد بطفلين من أطفاله من الوحدة الصحية، واشترى لهما علاجاً بمائتين وخمسة وثمانين ريالاً. وقبلها اشترى لهما حاجيات بتسعمائة ريال.

كانت الساعة الرابعة عصراً، وكان قد أدَّى صلاة العصر، وسأل وألحَّ في سؤال الله أن يعينه على تربية أولاده، وتدبير معاشهم، وأن يكونوا بركة عليه، وأن يكون هو أيضاً بركة عليهم، وخرج من المسجد دون أن تكون في ذهنه جهة محددة يذهب إليها. كان يريد فقط أن يجد شيئاً من الراحة بعيداً عن المنزل وعالمه المزعج.

كان يُسائل نفسه أين ستذهب يا (أبو بندر)؟ أين ستذهب...؟؟ وبرق في ذهنه اسم ابن خاله أبي عبد اللطيف، كان رجلاً موسراً، لديه خير كثير... من العمارات والعقارات، يعيش سعيداً في ثراء كبير، لقد عاد من سويسرا قبل أكثر من أسبوعين، وكان عليه أن يذهب لزيارته، فله حق عليه، وهو الذي دائماً ما يساعده، فيعطيه ما يريد من مال، ويجعله كأنه قرض لكي لا يكسر خاطره.

ونظر إلى الساعة الرابعة والنصف، وتساءل بينه وبين نفسه أهذا وقت زيارة؟ ألا يصبر حتى يأتي بعد المغرب فيكون الوقت أنسب؟ ولكن.. هذا الوقت لا بأس به؟ وحتى لو قيل له: إنه نائم أو مشغول فسيعود أدراجه، ثم يأتي إليه في وقت آخر.. ثم رأى أن يكف عن هذا التردد الذي سوف يجعله يؤخر هذه الزيارة إلى أجل غير مسمى؟

وعقد العزم على زيارة ابن خاله أبي عبد اللطيف، واتجه من فوره إلى منزله، كان يحمل معه أكواماً من الهموم، وحين رأى السكن الراقي الذي يسكنه، ودخل إلى مجلس الضيوف، دار في ذهنه أن رجلاً له كل هذه الأشياء هو رجل سعيد حقاً. وراح يوازن بين فقره وغنى صاحب الدار، بين جمال هذا السكن وتواضع مسكنه، بين هذا الأثاث الفاخر وسقط المتاع في بيته، بين حديقة الفلة الرحبة المنسقة وبين مقدمة منزله الضيقة، بين الهدوء الرائع هنا وبين الصخب والضجيج والإزعاج هناك، بين... وبين .. وبين .. وبين، موازنات كلها تنتهي قطعاً لصالح أبي عبد اللطيف. وما هي إلا برهة حتى جاء صاحب الدار تسبق خطواته كلمات التحية، وحسن الضيافة التي تفرش له المودة في صدر كل من عرفه.

وجلس أبو عبد اللطيف يسأل عن الأبناء ودراستهم، وعن العمل وأخباره وهو يردد بكلمات مقتضبة ما يفيد أن كل شيء على ما يرام وفاجأه بقوله:

- ما شاء الله كم صار لك من الأولاد؟

- عندي خير... يا (أبو عبد اللطيف)، الله يصلح ما أعطى.

- ما شاء الله..

- تسعة: خمسة أولاد وأربع بنات... الله يصلحهم.

- ما شاء الله.. الله يصلحهم ويطرح فيهم البركة.

- آمين..

ثم أمسك بخيط الحديث وهو يقول:

- وأنت يا (أبو عبد اللطيف) إن شاء الله ارتحت في رحلتك السياحية مع الأهل؟؟

تنهد أبو عبد اللطيف وهو يقول:

- من قال إنها رحلة سياحة وتفرج؟!

- هذا ما أتوقعه!

- لكن أنا وأم عبد اللطيف ما تركنا مركزاً مشهوراً لمعالجة العقم إلا ذهبنا إليه، طاحت أرجلنا من كثرة التنقل من عيادة إلى عيادة، ومن طبيب إلى طبيب، ومن مستشفى إلى مستشفى.

- وإن شاء الله وجدتم الشفاء.

- كلهم يقولون ما فيه أمل.

- الأمل بالله.

- ونِعْمَ بالله، ولكن البنين زينة الحياة الدنيا. (قال العبارة بلهجة تنم عن حزن شديد).

وشعر أنه قد نكأ جرحاً في نفس صاحبه، يا إلهي هل للأبناء كل هذه القيمة؟؟ وأنا أزهد فيهم، وأتضايق منهم..!!!! هذا الرجل الماثل أمامي في صحته وعافيته وغناه، وقصره المنيف، ومع ذلك ينسى كل ذلك ويذكر شيئاً واحداً وهو أنه ليس له ذرية !! كيف له أن يجحد نعمة ربه ويتمنى في أحيان كثيرة لو لم ينجب هذا العدد من الأولاد والبنات!! وأبو عبد اللطيف يطوف الدنيا، ويبذل ماله كله مقابل أن يرزق بابن واحد فقط، واحد على الأقل.

قطع أبو عبد اللطيف عليه هواجسه وهو يقول:

- كم تمنيت أن يدوي صراخ الأطفال في مسكني هذا، وسأكون في أشد حالات السعادة، حين أراهم قد عصفوا بكل هذه التنميقات والأثاث الفاخر الموضوع بكل عناية ودقة.. وليذهب كل شيء إلى الجحيم غير مأسوف عليه.. ويأتي لي ولد أسميه عبداللطيف على اسم والدي وأصبح أبو عبد اللطيف حقيقة!!

وختم حديثه بقوله:

- الله يبارك لك في أولادك، إنهم هم الخير والبركة..

- لكن... لهم مطالبهم.. ومعاناتهم.. يمكن ربي قد رحمك من الهم والغم الذي يأتون به.

– لكن مهما كانت أخف وألطف من عدم وجودهم!!

وحين رأى معاناة أبي عبد اللطيف. نسي أن يطلب منه مبلغاً يساعده به كالعادة، وشعر أنه قد أعطاه ما هو أثمن، أعطاه شيئاً ثميناً... اكتشف أن لديه كنزاً لا يُقدَّر بثمن، حري أن يفرح به، وأن يسعد به، وأن يصبر عليه.. غداً وكل غدٍ قريب، سوف يكبر الأبناء والبنات ويخدمون أنفسهم بأنفسهم، ويسعدونه هو ووالدتهم.

واستأذن للخروج فيما امتدت يد أبي عبد اللطيف بمبلغ من النقود، أربعة آلاف ريال قال وهو يمدها:

– خذ هذه سلفة نحن إخوان..

وحين رأى تمنعه ألحَّ عليه، ثم ألحَّ عليه أكثر قال له:

– خذ.. من عسرك إلى يسرك إن شاء الله.

وعلى الرغم من كثرة إلحاح أبي عبد اللطيف إلا أنه في هذه المرة لم يمدّ يده ليأخذ المبلغ، قال له بثقة وطمأنينة:

– عندي كل خير.. خيرك سابق يا (أبو عبد اللطيف)، جئت لأسلِّم عليك.. أنت ذخر يا (أبو عبد اللطيف) أنا أعدُّك ذخراً.. الله يجمِّل حالك.. عندي كل خير..

وخرج من منزل أبي عبد اللطيف فرحاً مسروراً، شعر أنه أعطاه هذه المرة أكثر من أي مرة سابقة، فتح عينيه على قيمة أبنائه وبناته، وعرف أنه ما كان له أبداً حق أن يتأفف من وجودهم

أو يتضايق منهم.. وهل يتضايق الإنسان حينما يضع الله بين يديه كنزاً من الكنوز الثمينة..؟؟!!

وقبل أن يعود إلى منزله مرَّ على محل الحلويات، واشترى منه بالخمسين ريالاً التي كانت معه، لم يكن معه غيرها، واتجه إلى المنزل، وحالما دخله، كان الضجيج والإزعاج على أشده، لكنه لم يتأفف من إزعاجهم هذه المرة، ولم يسخط من صخبهم، ولم يرفع صوته باللوم والتقريع عليهم، بل كان يبتسم ابتسامة رضا وسرور، ودفع إليهم بالحلوى، وبقي سعيداً في غاية الابتهاج، وهو يرى المعركة البريئة التي تدور رحاها أمام ناظريه.





جار مثير

وتوقعت أن يُغمى عليه وأستريح منه، لكن الذي حدث أنه بدا غير مصدِّق لم أقول إذ ردَّ باستغراب:

- وإذا كانت الطائرة تهوي إلى الأرض فلماذا لم تصل وتصطدم بها حتى الآن؟!

- ستصل إن شاء الله..!!؟

حين

جلست على كرسي الطائرة، كان الراكب الذي بجانبي قد وصل إلى المقاعد قبلي.

ألقيت عليه السلام، فرده عليَّ بكل حفاوة؛ ولأن الغريب للغريب نسيب فقد وجدت في حفاوته ما جعلني أقبل عليه، وأحب الجلوس إلى جانبه.

وجلست على الكرسي المجاور له، لا يفصل بيننا إلاَّ المستند الذي يمكن رفعه، إذا ما أراد الراكب أن ينهض، أو كانت الطائرة غير مزدحمة فيوسع الركاب على أنفسهم بالتمدد أو بالنوم.

لاحظت في البداية أن جاري في الطائرة مرتبك.. وما هي إلاَّ دقائق من الجلوس معه إلاَّ واكتشفت شيئاً آخر وهو أنه متشائم أيضاً. فقد بادرني بعد جلوسي معه برهة من الوقت بسؤالي:

- هل أغلقوا باب الطائرة؟

قلت:

- لا..

ردَّ بتأوُّه وتأفف:

- أكيد سيتأخرون في إغلاق الباب!

- لا أظن.

- هل هم ينتظرون أحداً؟!

- لا علم لي.

ولأني على نيَّاتي - كما يقولون- ولا أعرف طبيعته المتأففة، فقد رحت أحدثه أن التأخير الذي يكون في حدود أربع دقائق أو خمس لا يُعد تأخيراً يُذكر.

هزَّ رأسه بتأفف، وسكت على مضض. فجعلت أراقب الباب وحين رأيته قد أُغلق فرحت، وقلت له بلهجة المنتصر:

- ها... لقد أغلقوا الباب!! هل ارتحت الآن؟

بمجرد إغلاق الباب ظننت أن هموم جاري قد انتهت، لكنني فيما يبدو كنت متفائلاً أكثر من اللازم، لأني لم أعرف نفسيته حتى الآن، فبعد قليل، والطائرة تسير على المدرج؛ إذا به بنفس تلك النغمة المتأففة يسألني:

- إلى الآن ما أقعلت الطائرة؟!

- ستقلع إن شاء الله.

- ولكنها إلى الآن تسير على الأرض؟

- مازال الوقت مبكراً.

قال بعد ذلك بتحسر:

- الله أعلم!! ربما لا تستطيع الطيران.

رددت عليه وقد بدأت أعصابي تثور رغماً عني:

- وما الذي يدريك؟

- لا يحتاج الأمر إلى (شطارة) .. لو كانت الطائرة سليمة لأقلعت منذ زمن.

- لماذا أنت مستعجل هكذا؟

- أنا فقط متخوف أن يكون بها أعطال لا سمح الله!

رددت:

- لا سمح الله (ثم أضفت)، هل تريدها بلمحة طرف أن تقفز إلى طبقات الجو العليا؟ الأمر يحتاج صبراً...!! واستنفرت كل ما لدي من مخزون نفسي وشحنة عاطفية، وأنا أقول له:

- يا شيخ توكل على الله قل : يا ربِّ! وستسير الأمور على خير بإذن الواحد الأحد سبحانه.

ردَّ:

- الله يستر.. الله يستر..

كانت الطائرة قد بدأت تشق أجواء الفضاء.. ومكبر الصوت يردد بعذوبة وصفاء دعاء السفر. دعاء ما أروعه! وما أجمله! وما أحسنه!

و مضيت أنا وجاري نردد أيضاً هذا الدعاء، وكنت أنظر إليه بكثير من العتاب، فلم يحدث حتى الآن ما يستوجب خوفه وقلقه،

فلا الباب تأخروا في إغلاقه، ولا الطائرة تأخرت في الإقلاع، وليس هناك ما يستدعي واحداً بالألف من توقعاته التي لا أساس لها من الصحة، ولذا ظننت مرة أخرى، وبعد هذا الوقت الجميل مع الدعاء النبوي الكريم؛ أن قلق جاري قد توقف عند هذا الحد، ففرحت، وإن لم أستطع أن أمنع قليلاً من الشماتة أن تمتزج بتلك الفرحة.

ومع ذلك فسحنة وجهه وعبوسه، جعلتني أُدرك أن الكتاب يُعرف من عنوانه، وأن مهمتي في هذه الرحلة ستنحصر في تهدئة أعصاب جاري، وتقديم تعليل مناسب لكل شيء من الأشياء التي يسأل عن سببها، ولذا رأيت أن أحشر وجهي بين صفحات مجلة الطائرة، وعلى الرغم من أن هذا العدد من المجلة قد قرأته في رحلة سابقة؛ إلا أنه جاء رحمة من الله تعالى تكفيني المضايقات، وأنا أقول بيني وبين نفسي: "سبحان الله العظيم..!! رجل بهذه التخوفات، كيف له أن يعيش، ويواجه الحياة بصعوباتها ومشكلاتها".

ويبدو أنني كنت واهماً حين تصورت أن القراءة في المجلة سوف تحول دون أسئلته التي تهز البدن، فعبر ساعة أو أقل قليلاً انهال عليَّ سيل من تساؤلاته الغريبة، ووجدتني بالرغم من الاحتياطات الأمنية التي عملتها معه، والتحفظات التي أحطت نفسي بها قد أجبته، وهدأت روعه، في جملة أمور منها:

أن الغداء لم يتأخر.

وأنه لن يكون بارداً.

وأن دورة المياه ليس عليها زحام.

وأن أقنعة الأكسجين ستنزل تلقائياً عند الحاجة إليها.

وأن الطائرة لا تقلع إلا بعد فحص دقيق... دقيق - لا يغني عن الثقة بالله تعالى - ولكنه يدل على أن كل الأسباب قد هُيئت للسلامة.

كما طمأنته أن رائحة الحريق التي توهمها ما هي إلا رائحة (سجائر) وأن المضيف قد تنبه لذلك فمنع المدخن من مواصلة التدخين.

وحقيقةً فقد شعرت أن من الأخطاء الكبرى في حياتي جلوسي بجانب هذا المتخوِّف. ولأنه لاحظ أنني بدأت أستثقل دمه، وأستثقل أسئلته فقد وجدته يقول:

- لا تؤاخذني... فأنا أخاف ركوب الطائرة.

- من أجبرك على ركوبها؟

- مكتوب يا أخي..

- إذا كنت تخاف إلى هذا الحدِّ، فعليك أن تعتقل خوفك في نفسك.

- أنت غاضب مني..

- لا توزِّع خوفك على أحد، ثم تأكد أن السلامة في الطائرات أكبر بكثير من كل وسائل النقل الأخرى.

ومضيت أذكر له ما بقي في ذهني من دراسة دقيقة أجرتها منظمة الطيران العالمية (إياتا) وخرجت بتلك النتيجة المدهشة وهي أن الطيران أكثر وسائل النقل أمناً وسلامة.

على العموم، فقد استطعت بحمد الله أن أجيب عن أكثر تساؤلاته، إن لم يكن عن كلها. وليست (شطارة) مني إذ كلها تساؤلات ساذجة – من وجهة نظري على الأقل – وهدأت الأمور بعض الشيء، فسعدت وشعرت أن جاري قد ذهبت مخاوفه، ولكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة، فرجعت إلى صفحات المجلة أقرؤها للمرة العاشرة، ومضى ينظر إلى السحب من نافذة الطائرة، وفي هذه الأثناء مرَّت الطائرة بـ (مطبَّات هوائية) فإذا بها ترتج وتضطرب، وتعلو وتهبط، وتهتز يمنةً ويسرة، فيما كان مضيف الطائرة من خلال (المكرفون) يدعو إلى عدم ترك المقاعد حتى تُطفأ إشارات ربط الأحزمة.

وتماسك صاحبي في بداية الأمر عن أن يسأل، وهو الذي علم بتضايقي من أسئلته، ولكن شجاعته خانته فإذا به يقول لي:

– كل هذه مطبات هوائية؟!

– نعم.

– لا.. أظن ذلك؟

- وماذا تظن؟

- لا شيء..

ويبدو أنني رحمته، أو هكذا خُيِّل إليَّ فشرعت أحدثه أن هذا الشيء طبيعي، بسبب المرور بتيارات هوائية، وهي فترة مؤقتة إن شاء الله، لكنه لم يقتنع كعادته، بل قال: غاضباً:

- أنت!! إمَّا أنك لا تعرف السبب!! أو أنَّك لا تريد أن تخبرني به (ثم أضاف): يبدو الأمر خطيراً!!

ولم يكمل عبارته الأخيرة إلا ونحن نسمع (فرقعة) شديدة، تأثر لها أكثر الركاب، وأُطفئت من أجلها الأنوار الداخلية للطائرة.

فقال بلهجة غاضبة:

- وهذا الصوت الشديد، ما هو؟؟؟

وهنا شعرت أن عليَّ أن أتمتع بحقي الطبيعي في الغضب، ويكفي عليَّ ما فعلت من مراعاة خاطره، وتلطيف شعوره، ووثقت أنني لو استمريت على أسلوبي فسأكون على حافة الجنون؛ ولذا قلت بكل قوة وجسارة:

- هات أذنك أسرُّ بالسبب لكي لا يسمعه أحد!!

نظر باندهاش وقال:

- موافق..

- إن أحد محركات الطائرة سقط منها وهي تهوي الآن على إثره إلى الأرض.

قطَّب جبينه وهو يقول:

- أجاد أنت؟

- كلَّ الجدَّ!

وتوقعت أن يُغمى عليه وأستريح منه، لكن الذي حدث أنه بدا غير مصدِّق لما أقول إذ ردَّ باستغراب:

- وإذا كانت الطائرة تهوي إلى الأرض فلماذا لم تصل وتصطدم بها حتى الآن؟!

- ستصل إن شاء الله..!!؟

نظر إليَّ بين مصدِّق ومكذِّب وقال:

- يا شيخ قل خيراً يقوله الله..

- هذه هي الحقيقة..

وبدا عليه فوراً القلق والهمُّ، إلى الحد الذي جعلني أرحمه.. وحين مضى وقت طويل ولم يحدث ارتطام الطائرة بالأرض تأكد له أنها مزحة، ومزحة ثقيلة أيضاً؟! ونظر إليَّ كالعاتب، أما في داخلي فأكاد أنفجر من الضحك.

بعدها استرحت منه ومضت مدة، ثم عادت الأمور في الطائرة إلى ما كانت عليه، وأُضيئت الأنوار، وسُمح للركاب بالتجول داخل الطائرة، وغدت الطائرة تطير بهدوء وانسياب.

وقد عدَّها مزحة لا يمكن أن يسامحني عليها، أما أنا فقد وجدتها نعمة كبرى، أراحتني من أسئلته المثيرة للحنق والغضب!! فلم يسألني بعدها أيّ سؤال!!

في هذا الوقت وزَّع مضيفو الطائرة الطعام على الركاب، فأقبلت بشهية مفتوحة ألتهم وجبة العشاء التي قدمت لي، بينما (انسدت) نفس جاري فأعاد الوجبة كما جاءت.

وحين وصلت الرحلة بسلام تحقق لديَّ أن على شركات الطيران أن تعدَّ توابيت خاصة لنقل أمثال هذا الرجل، فلا يفتح عينيه إلا وقد وصل المحطة القادمة، أو على الأقل تُعطي تخفيضاً لا تقل نسبته عن خمسة وسبعين بالمئة من سعر التذكرة لمن ابتلي في الطائرة بمثل ذلك الإنسان النكد. مع ثقتي أن أحداً لن يقبل الحل الثاني حتى لو كانت التذكرة بالمجَّان!!



المحتويات

الموضوع	الصفحة

